الفصل الخامس والعشرون

الشيطان

العاشر من آذار عام 2007م

إنّ كابوس الدون فابيو هذه المرّة – من برشلونة– يتعلّق بفتى في سنّ التاسعة عشرة يُدعى ليو ميسي. برغوث أرجنتيني يفسد احتفاله (فابيو). لم يسبق لكابيللو الفوز على أرض البارسا (لا مع يوفنتوس، أو روما، أو ريال مدريد)، وكان على وشك تحقيق ذلك، عكس التوقّعات كلّها. لكنّ الرجل الصغير انبرى وعدّل النتيجة مرّة واثنتين وثلاثًا، وحين بدا أنّ المباراة ستدين لهم (ريال مدريد)، أخرج أفضل ما في جعبته في الدقيقة الأخيرة؛ وأخذ يحاور بسرعة متجهًا صوب منتصف منطقة الجزاء، ليضع الكرة في المرمى، وتنتهي المباراة بنتيجة (3-3). يشعر كابيللو وفريقه بشعور الطفل الذي أخذت منه مصاصته وهو يهم في أكلها.

كان ديربي إسبانيا – من دون أدنى شكّ- غريبًا، مثيرًا، متقلّبًا، مليئًا بالأهداف. بدأت المراسم بنزول قائدي الفريقيْنِ؛ بويول وراؤول إلى أرض الملعب، وهما يتضرّعان بالدعاء. دعاء يحتاج إليه كلا الفريقيْنِ؛ إذ يتعيّن على البارسا محو مرارة الخروج من دوري أبطال أوروبا، من ذاكرة (98) ألف مشاهد تغص بهم مدرّجات ملعب كامب نو، في حين يخوض ريال مدريد مباراة مصيرية؛ مباراة الفرصة الأخيرة لمواصلة المنافسة على اللقب.

obeikandl.com

تشير التوقّعات المعتادة إلى أنّ البلاوغرانا سيستحوذون على الكرة، وأنّهم المرشّحون لتحقيق الفوز، وأنّهم سينتشرون في الملعب بأسلوب (3-4-3) الجريء، وبذلك تصبح الرقابة على لاعبي الريال أقلّ من المعتاد. يصعب التكهّن بنتيجة مباراة مثل هذه؛ فريال مدريد يؤدي على نحوٍ مغاير أمام الغريم التقليدي بصرف النظر عن مستواه في البطولة. وبعد خمس دقائق فقط، وعلى عكس التوقّعات، يتقدّم الريال بهدف.

يمرِّر اللاعب الأشقر غوتي الكرة لهيغواين على الجهة اليسرى. يمرِّر الأرجنتيني الشاب كرة لا تفوح منها رائحة الخطورة، لكنّ تورام هو مَنْ يحوِّلها إلى كرة خطيرة، حيث يحاول إبعادها ويخطئ، لتصل إلى قدمي نستلروي، فيُسدِّد هذا الهولندي من خارج منطقة الجزاء.

محاولات اعتراض فاشلة للكرة من بويول وفالديز، فتستقرّ الكرة في المرمى (0-1). وحينئذٍ، تظهر على مُحَيّا ريكارد ملامح الانفعال والتوتر. ثمّ يظهر ليو ميسي بعد ذلك بخمس دقائق، ويتلقّى تمريرة في العمق من تشافي، فينفرد بكاسياس وجهًا لوجه. لاعبو الريال مصدومون. إنّه هدف التعادل.

يرزح المدافعونَ في كلا الفريقين تحت ضغط شديد. ومن الملاحظ أنّ التوتر والغيظ قد فعلا فعلهما بأوليفير لاعب البرسا؛ فينتهي به المطاف مطرودًا في الدقيقة الخامسة والأربعين، بعد تلقّيه الإنذار الثاني من خطأ ارتكبه في حقّ غاغو. وكان قد تلقّى الإنذار الأول في الدقيقة الثانية عشرة حين أمسك بغوتي داخل منطقة الجزاء. ضربة جزاء، وبطاقة صفراء، وفان نستلروي لا يُضيِّع الفرصة. أمّا فابيو كابيللو فلا يُصدِّق ما يرى. وكان الرئيس قد شدَّد عليه ألّا يخسر المباراة. أمّا أن يتقدَّم في النتيجة فذلك أمر يمنحه فرصةً لتنفّس الصعداء.

لا يطـول الأمر كثيرًا؛ إذ يُثبِت ميسي مرّة أُخرى أنّه مثل الكابوس، فيُسدِّد كـرة مرتدة مـن كاسياس. إنّها كرة ليست بالسهلـة، لكنّه يتمكّن من التسجيل. يجب التنويه هنا بـأنّ الفضل في إحراز هذا الهدف يُعزى إلى رونالدينو، الذي استيقـظ أخيـرًا من سباتـه. يواظب ميسي علـى تنفيذ ما هو ماهـر في عمله، فيغربـل لاعبيّـنِ أو ثلاثة، ثمّ يلعـب الكرة بطريقة (واحد-اثنيـن) مع إيتو، ثمّ يُسـدِّد على كاسياس الذي يتمكّن من التصـدي للكرة في المـرّة الأولى، لكنّه يعجز عـن ذلك أمام تسديدة ميسي المفاجئة. أربعة أهداف في سبع وعشرين دقيقة؛ هـذا هو أسلوب العرض الذي يحبّ الجمهـور الإسباني مشاهدته. يبدأ البارسا بالتحكّم في المباراة بعد التمكّن من العودة بالنتيجة.

دفاع الريال في حيرة، اللاعب الذي طرد كان من برشلونة لكن عندها يأتي الطرد، فيمضي «برشلونة» الشوط الثاني بعشرة لاعبين. وفي هذه الأثناء، يقوم ريـكارد بسحب إيتو من الملعب، ويدفع بسلفينهـو بدلًا منه. يستمر البلاوغرانا في سيطرتهم واستحواذهم على الكرة، لكنّ الريال ما زالوا قادرين على تهديد البرسا؛ ما يجعـل الأفضلية معرَّضة للضياع في أيّ لحظة. وفي غمرة الأحداث وتسارعها، يُنفِّذ غوتي ركلة حرّة، فيقفز سيرخيو راموس وبويول لملاقاة الكرة. وينجح مدافع الريـال بلمسها بمؤخّرة رقبته، فتضرب الكرةُ العارضةَ، لتتهادى داخـل المرمى. ولكن، هل انتصـر الريال؟ لا؛ إذ يظهر ميسي مرّة أُخرى لينقذ البرسـا، ويُبقي على فارق النقاط الذي يفصلهم عن الريال. وبذا، يعود كابيللو إلى المشكلة المعهودة نفسها.

لوكا كيولي، صحيفة كوريري ديلا سيرا، الحادي عشر من شهر آذار عام 2007.

يبـدو أنّ كابيللـو نسي مـا يمكن لميسـي أن يفعله. والغريب أنّـه سأل عن ذلـك الشيطان (كما أسماه) بعد إحدى مباريات بطولة كأس خوان غامبر، في

obeikandl.com

الرابع والعشرين من شهر آب عام 2005م، حين أصاب ليو دفاع يوفنتوس (كان كابيللو حينها مدرِّب نادي يوفنتوس) بالجنون، وتسبَّب في حصولهم على ثلاث بطاقات صفراء، ثمّ صنع هدفًا، وظلّ يُشكِّل خطورة طوال التسعين دقيقة. لكنّ يوفنتوس نجح – في نهاية المطاف– في خطف الكأس بعد فوزه بفارق الركلات الترجيحية (5–6). ولكن ذلك لم يَحُلْ دون اختيار ميسي بوصفه أفضل لاعب في المباراة، وعَدَّه المفاجأة السارة التي حملها اللقاء. وقد مازح فابيو كابيللو الذي عرف وقتها عِظَمَ الموهبة التي يمتلكها هذا اللاعب الشاب، فرانك ريكارد قائلًا: «حسنًا، إذا لم يكن لديكم مكان له في التشكيلة الأساسية، فأعطونا إيّاه، سنوقِّع معه في الحال».

ربّما اعتقد فابيو كابيللو أنّ الأمور كلّها ستكون على ما يرام بالنسبة إليه، في ليلة العاشر من شهر آذار عام 2007م، مثلما كان عليه الحال في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول عام 2006م على ملعب البرنابيو. فقد حقَّق البلانكوس انتصارًا عظيمًا (0–2)؛ ومدريد في قمّة السعادة بسبب هذه النتيجة، وميسي قدَّم كلّ ما لديه على مدار سبعين دقيقة على الأقلّ؛ تمريرات دقيقة بالقدم اليسرى، وصناعة فرص أهدرها زملاؤه، واختراقات لمنطقة الجزاء. لقد تمكَّن من فعل ذلك كلّه على الرغم من كثرة التدخلات الخشنة التي قام بها إيميرسون ضده؛ تدخلات أدت إلى إصابته بالتواء في الكاحل الأيمن، وتحديدًا في الرباط الجانبي الخارجي، يغيب على إثرها أسبوعًا عن الملاعب. لكنّه لم يتمكّن من التسجيل في تلك المباراة.

تُقلَب الطاولة هذه المرّة. فهل يحمل ميسي على ألدون فابيو الذي كان وقتئذٍ مدرِّبًا للمنتخب الإنجليزي (مدرِّب المنتخب الروسي الآن)؟ قطعًا لا. هل القضية أنّه محظوظ عندما يلعب ضد كابيللو؟ ذلك ليس صحيحًا أيضًا. الأمر برمّته مختلف. يقول ميسي: «اللعب أمام ريال مدريد تحديدًا من شأنه تحفيز

obeikandl.com

أيّ لاعب». تلك حقيقة كان قد أثبتها أول مرّة وطئت فيها قدماه ملعب البرنابيو في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني عام 2005م.

حُفِرت تلك المباراة في أذهان كلّ مَنْ شاهدها؛ بسبب الأداء المذهل الذي قدَّمه رونالدينو (سجّل هدفين خارقين، فضلًا عن أشياء كثيرة أُخرى فعلها)، ووقوف اثنين من مشجعي الريال لتحية لاعب البارسا صاحب الرقم (10). تلك كانت لقطة (مشهد) المباراة المميَّزة ولا شكّ. لقد كانت أمرًا لا ينسى. ظهرت اللقطة على محطات التلفزة جميعها. وهو أمر حفز المحرِّرين والصحفيين إلى البحث عن المشجعيْنِ اللذيْنِ كان أحدهما ذا شارب أسود والآخر مُلتَحيًا، وكانا يصفّقان واقفين على أقدامهما. وَدّ رجال الإعلام معرفة السبب الذي جعلهما يؤديان تلك التحية لرونالدينو. فماذا كان جوابهما؟ كيف لا يصفّقان للاعب النجم، وللسحر الذي نثره في الملعب، حتى لو كان ذلك بحركة بسيطة تنم عن روح رياضية؟! ولكن، كما بهر رونالدينيو كلّ مَنْ على المدرّجات بأدائه، كذلك فعل ليو.

لنطالع أبرز لقطات تلك المباراة:

• الدقيقة الثالثة: سيرخيو راموس يشعر بأنّ الطريقة الوحيدة لإيقاف البرغوث هي عرقلته، ويقوم بذلك فعلًا، على حافة منطقة الجزاء في مواجهة المرمى.

• الدقيقة الخامسة عشرة: ليو يُعِدّ كرة لإيتو بعد حركة رائعة، ولا يتوانى هذا الأخير عن وضع الكرة في الشباك. الدقيقة السادسة والعشرون: ميسي يسرِّع من إيقاعه بصورة رائعة تاركًا روبرتو كارلوس عاجزًا.

• الدقيقة الثلاثون: ميسي يخترق خطّ الدفاع، لكنّ إيكر كاسياس كان له بالمرصاد. بإمكان البارسا تسجيل هدف ثانٍ. يراوغ رونالدينيو في الدقيقة الأربعين، ثمّ يرسِل الكرة عرضية لميسي، لكنّ رأسية هذا الأخير تحيد عن

المرمـى. يحاول ميسي مرّة أُخرى فـي الدقيقة السابعـة والأربعين، لكنّ كرته ابتعـدت عـن خشبات المرمى بعـد ارتطامها بأحـد المدافعين. وفـي الدقيقة الخامسـة والخمسين يتمكّن كاسياس من صدّ تسديدة ميسي الثالثة. ثمّ يخرج ميسـي في الدقيقة التاسعـة والستين تاركًا مكانه لإنيستا. لقـد أثبتت الدقائق التي قضاها فـي اللعب، والمهارات التي استعرضها، أنّـه الكلاسيكو الأول، كلّ ما كان ينقصه، ليكتمل أداءه الذي تميَّز بالسرعة والحركة والتمريرات القاتلة؛ هـو التسجيل. لكنّ أفضل مشهد يَعلَق في الذاكـرة بخصوص تلك المباراة؛ هو الكمّ الهائل من الشجاعة التي أظهرها في أول مباراة له أمام الغريم التقليدي، وعـدم خشيته مـن أيّ شخصـ أو أيّ شيء، حتـى إنّه لم يُظهِر ولـو القليل من الرهبـة كما وصفها مواطنه خورخي فالدانو، وتمكَّن من إثبات ذلك في مختلف أرجـاء الملعب. وأخذ بزمام المبـادرة، وتحمّل المسؤولية على الرغم من وجود نجوم في الفريق على غرار الملهم رونالدينو، وإيتو الذي كان في أوج عطائه.

تلـك مشاعـر سيُعبِّـر عنها الكثيـرون؛ تأكيـدًا، ومخالفةً، ثـمّ تأكيدًا من جديـد، وهكذا دواليـك. من المؤسف أنّه (ليو) سيغيب عـن لقاء الإياب نتيجة الإصابـة التـي تعرّض لها في مبـاراة تشيلسي. إنّها الإصابـة نفسها (ولكن في السـاق الأُخـرى) التي سيعانيها فـي الخامس عشر من شهر كانـون الأول عام 2007م، فـي مباراة الفريق أمام فالنسيا على ملعب مستايا؛ أي قبل خمسة أيام مـن الكلاسيكـو. ألم حادّ في السـاق اليسرى، الرأس مطأطـئ، ليو يعضّ على قميصه وهو يهمّ بمغادرة الملعب. وداعًا للكلاسيكو.

يتعيّـن على البارسـا اللعب أمام ريال مدريد مـن دون اللاعب الذي صنع الفارق منذ بداية الموسم. وتؤكِّد الصور فوق الصوتية الأمر؛ تمزُّق في العضلة الثنائية الرؤوس بالفخذ اليسرى، ما يعني غيابًا عن الملاعب يمتد ما بين أربعة إلى خمسـة أسابيع (سيلعب مجدَّدًا بعدها بستة وثلاثين يومًا؛ أي في العشرين

مـن كانون الثاني تحديدًا، وذلـك ضد رايسنغ سانتانديـر). وسيعاني الإصابة مـرّة أُخرى في الرابع من شهـر آذار عام 2008م، في ربع نهائي دوري الأبطال، فـي المبـاراة التي سيخوضها فريقـه أمام فريق نادي سيلتيـك على أرض هذا الأخير. تمزّق آخر بالفخذ اليسرى؛ تبعه غياب مدته خمسة أسابيع أُخرى.

قـد يتبـادر إلى الذهن سؤال مهم، هو: لماذا يعانـي ميسي تلك التمزّقات والكسور كلّها، لدرجة أنّ الجميع بدؤوا يُسمّونه النجم الخزفي؟

آلام عضليـة متراكمـة، وإصابـة قديمة لـم تُشفَ كما يجـب، ونقص في الإحمـاء، وضغـط نفسي، وتوزيـع غير متـوازن للجهد على العضـلات، ونمط مغلـوط يغلِّف الحيـاة المهنية، واصطـدام مباشر، واختـلاف مزعوم في طول الساقيـن... تلـك كانت بعضًا مـن أسباب تعرّضه للإصابـات. أضف إلى ذلك أنّ التعقيـد الذي تتميَّـز به البنية المأبضية (العضـلات المفصلية) يجعل من الصعـب معرفـة سبب الإصابة بدقة، ما يبطِّئ مـن عملية تعافي اللاعب منها. أمّـا في حالة ميسي فيعزي بعضهم الأمر إلـى وضعه الجسدي، وبنيته العضلية والعظميـة، وإلى مشكلات في النمو ناجمة عن الهرمونـات. ولكن، في أيّ حال من الأحـوال، يصعب تحديد السبب بدقة، حتى بالنسبـة إلى الأطباء في نادي برشلونة، الذين هاجمتهم الصحافة أكثر من مرّة لعدم دقتهم في تحديد المدّة اللازمـة للتعافي من الإصابـات. يشرح خورخي ميسي ذلـك بقوله: «لقد قالوا لـي: إنّ كتلته العضلية تتكوّن من ألياف انفجارية، كتلك التي يمتلكها العدّاؤون. وذلك هو سبب السرعة التي يتميَّز بها، لكنّ إمكانية التعرّض لكسر واردة جدًّا. ليو يعي جيدًا أنّ عليه الانتباه لنفسه في الأوقات كلّها».

لنغلـق موضـوع الإصابات، ولنكمل قصـة كلاسيكو العاشر مـن آذار عام 2007م. علمًـا بأنّ تلك القصة تتضمّن حديثًا عن إصابة هي الأُخرى. ليو غائب عـن الملاعب منـذ تسعة أسابيع، ولكن هذه المرّة ليـس بسبب مشكلة عضلية،

وإنّما بسبب حادث في أثناء إحدى المباريات. ففي الثاني عشر من شهر تشرين الثاني عام 2006م، خاض الفريق مباراة أمام فريق ريال سرقسطة، وفيها داس مدافع الفريق الخصم، إلبيرتو زاباتار على قدم ليو؛ ما أدى إلى كسر في العظمة الخامسة من مشط القدم اليسرى. خضع ليو لعملية جراحية، تخلّلها وضع مسمار لتثبيت العظم، وزراعة جلد للمساعدة على تسريع الشفاء.

كان قد أدى جيدًا في المباريات التي سبقت هذه المباراة، «لكنّني (الكلام هنا له) لم أُسجِّل بعدُ. يتعيّن عليَّ إنجاز تلك المهمة». لقد تمكَّن من تسجيل (هاتريك) هو الأول له على المستوى المتقدّم (تمكَّن قبلًا من تسجيل حتى أكثر من ثلاثة أهداف في المباراة الواحدة. ولكن، كان ذلك في أقلّ المباريات شأنًا)، وعلى الرغم من أنّه (الهاتريك) لا يجلب النصر للفريق، إلّا أنّه يكفي - على الأقلّ - لحماية البارسا من موقف حرج؛ فكما يقول ليو: «لأنّ الخسارة من الريال مريرة دائمًا». ليس ذلك فحسب؛ إذ يتيح له هدف سجّله عرضَ رسالة كتبها تحت قميصه، مفادها «شُدَّ من عزيمتك يا عمّاه»، رسالة وجّهها لعرّابه الذي كان قد فقد والده آنذاك. إنّها طريقته في إظهار دعم لا متناهٍ في أوقات صعبة.

كان هناك إهداء آخر في تلك الليلة الساحرة، وقد جاء على صورة قُبَل طبعها على شعار النادي. فبعد الهدف الثالث، يركض ميسي مكرِّرًا الحركة نفسها؛ لأنّه، كما يقول: «أُدين بالكثير للبارسا على ما فعلوه من أجلي عندما أُتيحت لهم الفرصة، وأُدين أيضًا للمشجعينَ على الحبّ الذي غمروني به، خاصة في أثناء الأشهر الصعبة الماضية». لقد غيَّرت هذه الأهداف الثلاثة مسار موسم حافل بالمفاجآت غير السارة.

سيلعب ليو باستمرار، بدءًا بالعاشر من شهر آذار، وسيحرص على عدم ضياع أيّ فرصة متاحة، ولن يكتفي بتسجيل الأهداف فحسب، بل سيصنع تحفًا فنية أيضًا.